

تفسير ابن كثير

يخبر تعالى عن قدرته على كل شيء وأنه خلق السموات والأرض في ستة أيام وأن عرشه كان على الماء قبل ذلك كما قال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن جامع بن شداد عن صفوان بن محرز عن عمران بن حصين قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [اقبلوا البشرى يا بني تميم] قالوا : قد بشرتنا فأعطنا قال : [اقبلوا البشرى يا أهل اليمن قالوا : قد قبلنا فأخبرنا عن أول هذا الأمر كيف كان ؟ قال : [كان الله قبل كل شيء وكان عرشه على الماء وكتب في اللوح المحفوظ ذكر كل شيء] قال : فأتاني آت فقال : يا عمران انحلت ناقتك من عقالها قال : فخرجت في إثرها فلا أدري ما كان بعدي وهذا الحديث مخرج في صحيح البخاري ومسلم بألفاظ كثيرة فمنها قالوا : جئناك نسألك عن أول هذا الأمر فقال : [كان الله ولم يكن شيء قبله وفي رواية - غيره - وفي رواية - معه - وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر كل شيء ثم خلق السموات والأرض .

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء] وقال البخاري في تفسير هذه الآية : حدثنا أبو اليمان أخبرنا شعيب أخبرنا أبو الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة B أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : [قال الله أنفق أنفق عليك] وقال : [يد الله مملأ لا يغيضها نفقة سحاء الليل والنهار] وقال : [أفرأيت ما أنفق منذ خلق السموات والأرض فإنه لم يغيض ما في يمينه وكان عرشه على الماء وبيده الميزان يخفض ويرفع] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يزيد بن هارون أخبرنا حماد بن سلمة عن يعلى بن عطاء عن وكيع بن عدس عن عمه أبي رزين واسمه لقيط بن عامر بن المنتفق العقيلي قال : قلت : يا رسول الله أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه قال : [كان في عمام ما تحته هواء وما فوقه هواء ثم خلق العرش بعد ذلك] وقد رواه الترمذي في التفسير وابن ماجه في السنن من حديث يزيد بن هارون به وقال الترمذي : هذا حديث حسن وقال مجاهد { وكان عرشه على الماء } قبل أن يخلق شيئاً وكذا قال وهب بن منبه وضمرة وقتادة وابن جرير وغير واحد وقال قتادة في قوله { وكان عرشه على الماء } ينبئكم كيف كان بدء خلقه قبل أن يخلق السموات والأرض وقال الربيع بن أنس { وكان عرشه على الماء } فلما خلق السموات والأرض قسم ذلك الماء قسمين فجعل نصفاً تحت العرش وهو البحر المسجور .

وقال ابن عباس : إنما سمي العرش عرشاً لارتفاعه وقال إسماعيل بن أبي خالد سمعت سعداً

الطائي يقول : العرش يا قوته حمراء وقال محمد بن إسحاق في قوله تعالى : { وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء } فكان كما وصف نفسه تعالى إذ ليس إلا الماء وعليه العرش وعلى العرش ذو الجلال والإكرام والعزة والسلطان والملك والقدرة والحلم والعلم والرحمة والنعمة الفعال لما يريد وقال الأعمش عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير قال : سئل ابن عباس عن قول الله : { وكان عرشه على الماء } على أي شيء كان الماء ؟ قال على متن الريح وقوله تعالى : { ليبلوكم أيكم أحسن عملا } أي خلق السموات والأرض لنفع عباده الذين خلقهم ليعبدوه ولا يشركوا به شيئا ولم يخلق ذلك عبثا كقوله { وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار } وقال تعالى : { أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون * فتعالى الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم } وقال تعالى : { وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون } الآية وقوله { ليبلوكم } أي ليختبركم { أيكم أحسن عملا } ولم يقل أكثر عملا بل أحسن عملا ولا يكون العمل حسنا حتى يكون خالما D على شريعة رسول الله صلى الله عليه وسلم فمتى فقد العمل واحدا من هذين الشرطين حبط وبطل .

وقوله : { ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت } الآية يقول تعالى ولئن أخبرت يا محمد هؤلاء المشركين أن الله سيبعثهم بعد مماتهم كما بدأهم مع أنهم يعلمون أن الله تعالى هو الذي خلق السموات والأرض كما قال تعالى : { ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله } { ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله } وهم مع هذا ينكرون البعث والمعاد يوم القيامة الذي هو بالنسبة إلى القدرة أهون من البداءة كما قال تعالى : { وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه } وقال تعالى : { ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة } وقولهم : { إن هذا إلا سحر مبين } أي يقولون كفرا وعنادا ما نصدقك على وقوع البعث وما يذكر ذلك إلا من سحرته فهو يتبعك على ما تقول وقوله : { ولئن أخرجنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة } الآية يقول تعالى ولئن أخرجنا العذاب والمؤاخذه عن هؤلاء المشركين إلى أجل معدود وأمد محصور وأوعدناهم إلى مدة مضروبة ليقولن تكذبا واستعجالا ما يحبسهم أي يؤخر هذا العذاب عنا فإن سجاياهم قد ألفت التكذيب والشك فلم يبق لهم محيص عنه ولا محيد والأمة تستعمل في القرآن والسنة في معان متعددة فيراد بها الأمد كقوله في هذه الآية { إلى أمة معدودة } .

وقوله في يوسف : { وقال الذي نجا منهما وادكر بعد أمة } وتستعمل في الإمام المقتدى به كقوله : { إن إبراهيم كان أمة قانتا حنيفا ولم يك من المشركين } وتستعمل في الملة والدين كقوله إخبارا عن المشركين إنهم قالوا : { إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون } وتستعمل في الجماعة كقوله : { ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من

الناس يسقون { وقوله : { ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت {
وقال تعالى : { ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون {
والمراد من الأمة ههنا الذين يبعث فيهم الرسول مؤمنهم وكافرهم كما في صحيح مسلم [والذي
نفسى بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار]
وأما أمة الأتباع فهم المصدقون للرسول كما قال تعالى : { كنتم خير أمة أخرجت للناس { وفي
الصحيح [فأقول أممي أممي] وتستعمل الأمة في الفرقة والطائفة كقوله تعالى : { ومن قوم
موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون { وكقوله : { من أهل الكتاب أمة قائمة { الآية